المفهوم النظري للسياق وأنواعه

-محاولة لسانية-

د. سعد بولنوار
جامعة عمار ثليجي الأغــواط

ملخص المقال:

يعد السياق من العوامل الأساسية التي تحدد مقاصد الخطاب، ذلك أن كل المعاني و المقاصد لابد لها من سياق معين ترد فيه، وقد تكلم العلماء قديما عن السياق في مناح كثيرة، وأفرد له المعاصرون جانبا مهما من التأليفات، ولا يكاد يخل أي مجال معرفي من مراعاة للجانب السياقي في اعتبارات شتى.

Abstract

The context of the basic factors that determine the purposes speech, human affairs that is expressed by the word it requires a certain context.

Theoretically,this article examines this issue to define the concept of context, we address the context properties, through the Arab vision of foreign and vision.

تقديم:

يعتبر السياق في هذا الشأن أو غيره من الشؤون من الأهمية بمكان، أن صار الركن الذي لا يستغنى عنه، " فليس المعنى المقصود المحصل في خطاب من الخطابات هو بالضرورة المعنى الذي يعثر عليه في القاموس... أما استعمال اللفظ بمعنى آخر غير معناه الوضعي (الموضوع له في أصل اللغة أو المعاني) فهو ما يسميه العلماء العرب بالاتساع أو سعة الكلام. و هو تجوز يبيحه الاستعمال للغة لعلاقة قائمة بين المعنى الأصلي و المعنى المتوسع فيه"[1]، و تلك العلاقة لا يتصيدها إلا فهمنا للسياق .

والمجالات التي يكون السياق حاضراً فيها كثيرة جدا، فضلاً على ما ذكر، نجد الأدب مجالاً خصباً لظواهر السياق، كذلك الخطابات الخاصة مثل الخطابات السياسية وما يدخل في إطارها، و نجد أن الخطاب الإلهي و أغلب الخطابات الإنسانية تعتمد على السياق، ذلك لأن الإنسان يمتلك خاصية إدراك العلاقات بين ماهو مقصود و بين ماهو غير مقصود لذاته، و لكي نعرف الأهمية التي تختص بها آلية السياق لا بأس في نتدرج في تحليلنا من أول عنصر وهو مفهوم السياق.

مفهوم السياق:

للسياق معنيان الأول لغوي، و الثاني اصطلاحي و لنبدأ بالمعنى اللغوي:

1-المعنى اللغوي للسياق:

يقول الجوهري في الصحاح:" سوق : الساق: ساق القدم، و الجمع: سوقٌ مثل أسد و أسْد، و سيقان وأسؤُق.. ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي: بعضهم على أثر بعض.. و ساق الشجرة: جذعها.. وساق الماشية يسوقها سوقا.. واستاقها فانساقت. وسقت إلى امرأتي صداقها.. ويقال أسقتك إبلا، أي: أعطيتك إبلا تسوقها، والسياق: نزع الروح، يقال رأيت فلانا يسوق، أي: ينزع عند الموت. والسويق معروف"[2].

ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط: "الساق: ما بين الكعب والركبة، ج سوقٌ و سيقان وأسؤق، همزت الواو لتحمل الضمة. [يوم يُكشف عن ساق] [القلم:42]: عن شِدّة. [و التفّت السّاق بالسّاق] [القيامة:29] آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة.. والسياق، ككتاب: المهر. والأسوق: الطويل الساقين.. وتساوقت الإبل : تتابعت وتقاودت، و– الغنم: تزاحمت في السير"[3].

ويقول أحمد بن فارس في معجم مقاييس اللغة: " السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء.. والساق للإنسان و غيره، و الجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها"[4].

ويقول الفيومي في المصباح المنير: "س و ق: (سقت) الدابة أسوقها سوقا والمفعول مسوق على مفول وساق الصداق إلى امرأته حمله إليها.. و هو في السياق أي في النزع.. وتساوقت الإبل تتابعت قاله الأزهري وجماعة، والفقهاء يقولون تساوقت الخطبتان ويريدون المقارنة و المعية وهو ما إذا وقعتا معاً ولم تسبق إحداهما الأخرى"[5].

نرى من خلال ما مر بنا: أن " السياق في الحس اللغوي وفي الدلالة اللغوية وبمجموع المعاني التي تدل عليها تقليبات هذه الكلمة، يدل على انتظام متوال في الحركة لبلوغ غاية محددة.. فالتتابع فيما بين الأشياء هو التساوق، و لا يكون متتابعا إلا إذا كان له غاية لا بد من وصولها"[6].

2-المعنى الاصطلاحي :

المعنى الاصطلاحي لكلمة سياق، صعب جدا في تحديده، لأنه اصطلاح تكاد أغلب المجالات المعرفية تدّعيه لنفسها، و الحقيقة هي كذلك، فأغلب العلوم تستعمل هذا المفهوم في مجالاتها المختلفة، و لا يكاد حقل معرفي يخلو منه، و يرى عديد الباحثين أن السياق في إطار النظرية يرجع في أصوله إلى لغويي القرن التاسع عشر، من أمثال الباحث فيجنر Wegner الذي يرى أن السياق "هو الأساس أو المحيط الذي تعتمد عليه الحقيقة في توضيحها وفهمها، وأنه لا يتضمن عند الاتصال اللغوي الكلمات فقط، بل الصلات و الظروف المحيطة و الحقائق السابقة"[7]، و هناك من يرجع بأصول نظرية السياق إلى مباحث فلسفة

اللغة العادية، التي صاحبها النمساوي فيتنغشتاين Wittgenstein و" المادة الأساسية للفلسفة عند فيتنغشتاين هي اللغة.. وراح يطور فلسفته الجديدة التي توصي بمراعاة الجانب الاستعمالي في اللغة.."[8] وبالنظر إلى هذا وإلى ما ذُكر كانت الصعوبة في القبض على الحد الجامع و المانع .. ومع هذا ستكون المحاولة، بإيراد تعريفات من مختلف المشارب والاتجاهات.

ولقد تفاوت العلماء العرب في تحديد مفهومه واختلفوا بحسب موقع كل واحد من اهتمامه الخاص، و لهروب السياق من أن يحدد بألفاظ مخصوصة، وربما هذا ما أغنى الشبكة المفاهيمية للسياق بالكثير من التعريفات فقد "قال ابن دقيق العيد:أما السياق و القرائن، فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه. وقال السرخسي: القرينة التي تقترن باللفظ من المتكلم، وتكون فرقاً فيما بين النص والظاهر هي السياق، بمعنى الغرض الذي سيق لأجلها الكلام ، وقال البناني (ت1198 هـ):" السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه"[9]

ويمكننا القول بأن مصطلح السياق في معناه يطلق على مفهومين، و ذلك تفاديا مما يثيره معناه في ما قد حدث في أفهام البعض، فهناك السياق اللغوي أو اللساني، و هناك سياق آخر يختلف عن هذا السياق و هو سياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف، "فالمفهوم الأول كان المفهوم الأكثر شيوعاً في البحث المعاصر.. و يتضح بهذا المفهوم، أنه تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب، من وحدات صوتية و صرفية، و معجمية، و ما بينهما من ترتيب وعلاقات تركيبية.. تجاوز الباحثون [هذا] التعريف النموذجي إلى التعريف الأرحب للسياق فأصبحت (تعرف مجموعة الظروف التي تحف حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام (..) و تسمى هذه الظروف، في بعض الأحيان، بالسياق.. بيد أنه قد يلتبس، عند هذا الحد، مصطلح السياق بمصطلح المقام، وهذا الالتباس ممتد بين زمنين و ثقافتين.. و هذا ما يبديه تمام حسان عند تحفظه على تحديد مفهوم المقام عند البلاغيين العرب. فهو يرى أن الفيصل في ذلك الاختلاف بين مفهومي المقام و السياق، هو معرفة ما تنطوي عليه الثقافة.. بقوله: لقد فهم البلاغيون (المقام) أو (مقتضى الحال) فهماً سكونياً قالبياً نمطياً مجرداً ثم قالوا لكل مقام مقال (..) فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة (..) وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكوني static فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، و إنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه.. "[10]

وينطلق المثنى عبد الفتاح محمود في تعريفه للسياق، من نظرته للسياق في إطار القرآن، آخذا في ذلك بالمعنى اللغوي الذي هو التتابع، فيقول: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"[11] .

ويعرض ردة اللّه الطلحي السياق في بعض النقاط المحددة، و ذلك بعد أن طاف بعدد من المفاهيم المختلفة في التراث العربي، يقول:[12]

الأولى: أن السياق هو الغرض : أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبر بلفظ السياق (السوق) عنها، و كان استعمالها بهذا منضبطا عند الأصوليين..

الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبر عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام.

الثالثة : أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل، و يشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام يمكن أن يضيء دلالة القدر منه (موضع التحليل) أو يجعل منها وجها استدلالياً.

ويعرفه جاسم محمد عبد العبود بأنه :"استعمال الكلمة في اللغة أو طريقة استعمالها، أو الدور الذي تؤديه الكلمة أو هو مجموع ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى"[13].

وتعرفه خلود العموش بقولها: " أن السياق يفسر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية والإبلاغية، لدى كل من منتج الكلام و المتلقي، و أنه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية.

والبداية الفعلية للاهتمام بالسياق، كانت من قبل برونسلا مالينوفسكي Malinowsky العالم الأنثروبولوجي، فهو يهتم بسياق الموقف ويرى أن اللغة أسلوب عمل و تعاملنا مليء بمبدأ مهم هو مبدأ التجامل، فقد وجد مالينوفسكي نفسه أمام "كثير من العبارات والتعبيرات التي صعب عليه تفسيرها ترادفياً، فحاول ربطها بالمواقف التي قيلت فيها.. والذي يبدو أن كل لغات العالم هي أسلوب عمل حين يكون سياقها كذلك، أما حين يختلف السياق، فتختلف الوظيفة، فهي توثيق فكر و تبليغ رسالة حين يكون سياقها فكرياً أو إبلاغياً.. إن هذه المبادئ التي بشر بها مالينوفسكي قادته إلى التعمق في السلوك اللغوي بإزاء أنماط السلوك الاجتماعي المختلفة ليضيف جانبا من السلوك اللغوي الاجتماعي أسماه (التجامل Phaticcommunion)"[14]، وربما يتشاكل هذا المصطلح قليلا مع قد عرفناه في عرفنا بالمداراة .

ويتبنى حسين خمري رأي محمد العمري في تعريفه للسياق، يقول: "و لتعريف السياق نورد ما قاله محمد العمري في مجلة (دراسات سيميائية) إذ يقول: يتسع المقام ليشمل جميع الشروط الخارجية المحيطة بعملية إنتاج الخطاب شفوياً كان أو مكتوباً. و كثيراً ما ارتبط المقام في البلاغة العربية بزيادة شرح و تحديد ذلك بالحديث عن أقدار السامعين مقتضى أحوالهم... ثم يفرق محمد العمري بين السياق و المقام قائلاً: لابد من التمييز بين المقام والسياق وذلك بحصر الثاني في العلاقات بين الوحدات اللسانية داخل التركيب، سياق

كلمة أو وحدة صوتية مثلاً. وقريب من السياق ما سيسميه بعض البلاغيين المقام الداخلي في الأدب وهو العلاقة بين الشخصيات في العمل السردي والمسرحي، تمييزاً له عن المقام الخارجي المرتبط بمن يستهلك ذلك الإنتاج " [15]

ولعل اللساني البريطاني فيرث هو أول من اهتم بالسياق باعتباره نظرية متكاملة وكان قد استفاد من آراء مالينوفسكي، "وتقوم هذه النظرية على النظر إلى المعنى بوصفه وظيفة في سياق. وأحدثت بذلك تغيرا جوهريا في النظر إلى المعنى.. وقد استخدم السياق في هذه النظرية بمفهوم واسع بحيث يشمل السياق الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، ولا يظهر المعنى المقصود للمتكلم إلا بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة"[16]، وقد أفادت هذه النظرية بشمول تناولها الذي لا يقصي أي طرف في دورة الخطاب، فموضوع "النظرية الفيرثية إذاً هو السلوك البشري في إطار سياق معين. ولكن الموقف تجاه المعطيات السلوكية هنا، جاء مخالفا لما ورد في النظريات الأخرى، التي نظرت إلى اللغة على أنه أنها نشاط إنساني، فالنظريات اللغوية التي تبنت فكرة اللغة على أنها سلوك كالبنيوية السلوكية البلومفيلدية، تبنت كذلك ثنائية دي سوسير بين المتصور والمدلول مقابل الصورة الصوتية والدال، وفسرتها في إطار السلوك: أي المثير والاستجابة للمثير، أو السياق، أو المعنى مقابل الصوت، ويمكن تحري النمط اللغوي من العلاقات القائمة بين هذين المظهرين للمعطيات. أما فيرث فيرى أن النمط يستخلص من المعطيات السلوكية الكلامية في سياق ما، و لكن العلاقة بين السلوك والسياق ليست كما ذهب إلى ذلك دي سوسير. و قد أطلق فيرث على السلوك الكلامي اسم: المعطيات الصوتية (Phonic data). و هي عبارة عن متصل كلامي غير مقطع، و السياق الواسع هو الثقافة، والسياقات الثانوية هي سياقات الموقف"[17]

ويرى هاليداي M.Halliday أن السياق: "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[18].

ويقول روبرت دي بوجراد: "ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه Situation of occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات Stratégies والتوقعات Expectations والمعارف Knowledge، وهذه البيئة الشاسعة تسمى سياق الموقف Context. أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية Co-text "[19]، إذ أنه يفرق ما بين مصطلحين Context ويتضمن ما هو موجود في الخارج من دلالات، وأيضاً يتضمن ما يخص إنتاج النصوص واستقبالها، وCo-text ويتضمن الجوانب الداخلية من مكونات نحوية قواعدية وصوتية وصرفية.

ومن جهة أخرى هناك نظرة لسانية معاصرة للسياق، انطلقت من وحي اللسانيات التداولية، والتي موضوعها الاستعمال اللغوي في الطبقات المقامية المختلفة، وأبرز إجراء معبر عن السياق هو الفعل الكلامي بأقسامه الثلاثة، ومن المسؤول عن اتجاهات المطابقة

في الفعل المتضمن في القول، وما دور القوة الإنجازية المنجرة عن هذا في سياق الحجاج، غير أن الإستراتيجية التداولية تعتبر طريقة جيدة لما هو منجز كلامياً، وهذا المنجز ينبغي أن يكون ذا طابع إيقاعي بمعنى أن يحقق فعلاً حال التلفظ به مثل ألفاظ العقود و الوعد، غير أن هذا التوجه مازال يبحث له عن تجريب لتحقيق الكفاية اللازمة له، وذلك في نصوص البوحيات والخبرية المكتوبة.

وعليه فآلية السياق هو تناولٌ إجرائي يخص ثلاثة مستويات، المستوى النصي اللغوي، والمستوى الذي يدخل في نطاق العلاج الدلالي أو السيميائي بتعبير أصح، و المستوى غير اللغوي الذي يدخل في باب الاستعمالات أو بما يسمى التداولي الذي من مهامه التناولات الثقافية والعرفية بين أطراف الخطاب، ومن منظوره هذا يستعين بآليات مختلفة، آليات البنية و آليات الدلالة وآليات التداول، وموضوعه يكمن في البحث عن المعنى أولاً، و في البحث عن المقاصد ثانياً.

3- مكونات السياق :

للسياق مكونات عديدة وعناصر مختلفة، تدخل أثناء تفاعله في دورة خطابية معينة، وهذه المكونات والعناصر تختلف بحسب الأداءات وبحسب الأفراد وبحسب الزمان والمكان.

ونجد عناصر السياق عند هاليداي تتمثل في الآتي:[20]

1 – موضوع الحدث الأساسي .

2 – الوسيلة اللغوية نطقا أو كتابة .

3 – نوع النص من حيث كونه سرديا... (النوع الأدبي مثلا..).

4 – أسلوب النص (نوع الكلام نحويا) الأمر – الاستفهام – الرجاء -، و(نوع الكلام اجتماعيا) من حيث الرسمية وعدمها.

5 – المتكلم.

6 – المخاطب (السامع).

7 – المشاركون في الحدث اللغوي من حيث المستوى الاجتماعي والثقافي، وعلاقة كل منهم بالمتكلم أو السامع، أو بالحدث في إجماله.

8 – الغاية التي يساق لها النص (الغرض) كالإخبار، والوصف، والطلب بعمومه.. الخ

9 – الأشياء المحيطة بالحدث (المكان و الزمان).

ونجد ابن تيمية يراعي في نظرته إلى عناصر السياق القرآن في ذلك، و يمكن أن ندرج عناصره على النحو التالي[21]:

1 – المتكلم بالقرآن.

2 – المنزل عليه.

3 – المخاطب عليه.

4 – سياق الكلام...

5 – معرفة المكي والمدني.

6 – معرفة أسباب النزول.

ويذكر جاسم محمد عبد العبود بعض المكونات من مثل:

القرينة.. (هي ما يمنع من إرادة المعنى الأصلي في الجملة)..

النظم.. (تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل وقيل الألفاظ المرتبة المسوقة المعتبرة ودلالاتها على ما يقتضيه العقل)..

والنص.. (عبارة عما يثبت بمعنى النص لغة لا اجتهادا).. (ما لا يتحمل إلا معنى واحدا، وقيل ما لا يتحمل التأويل)..

الخطاب.. (توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ثم نقل الكلام الموجه نحو الغير للإفهام)..

المقتضى أو الاقتضاء.. (هو جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق)..[22]

ويرى الشهري أن السياق يتكون من: "المرسل و المرسل إليه، وما بينهما من علاقة، بالإضافة إلى مكان التلفظ و زمانه، وما فيه من شخوص وأشياء، وما يحيط بهما من عوامل حياتية: اجتماعية، أو سياسية، أو ثقافية، وأثر التبادل الخطابي في أطراف الخطاب الأخرى"[23]

ويتوصل الطلحي – في رأيه - إلى عناصر السياق الرئيسية، ويعتبر أنها تتمثل في:[24]

1 – المتكلم.

2 – المخاطب.

3 – الكلام (النص).

4 – معضدات الكلام.

5 – الزمان و المكان.

والمقاربة التداولية تنظر إلى عناصر السياق نظرة التحقق الفعلي للقول، "فقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي Speech act نواةً مركزية في الكثير من الأعمال التداولية. فحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. وفضلاً عن ذلك، يعد نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية Actes locutoires لتحقيق أغراض إنجازية Actes illocutoires (كالطلب والأمر والوعد والوعيد.. الخ)، وغايات تأثيرية Actes Perlocutoires تخص ردود فعل المتلقي"[25].

وهي جملة العناصر التي عادة ما تكون معتبرة عند بناء النص أو فهمه، وكما قلنا سابقا فإن العناصر ليست هي نفسها عند كل دورة خطابية معينة، لذلك من الصعب جدا أن نورد العناصر المثالية للسياق لكل ما يجول من خطابات، و ما أوردناه هو الشائع لدى محللي الخطابات.

الهوامش:

[1] – عبد الرحمان الحاج صالح – بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، موفم ، درط ، الجزائر ، 2007، : 341 .

[2] – أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري – الصحاح، ص: 573.

[3] – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي – القاموس المحيط، ص: 823 ، 824 .

[4] – أحمد ابن فارس – معجم مقاييس اللغة، دار الفكر ، ط 02 ، لبنان ، 1998، ص: 498 .

[5] – أحمد بن محمد بن علي الفيومي– المصباح المنير، ص: 178 .

[6] – عبد الفتاح محمود المثنى – نظرية السياق القرآني، دار وائل للنشر ، ط 01 ، الأردن ، 2007، ص: 14 .

[7] - محمود جاب الرب – علم اللغة نشأته و تطوره، دار المعارف ، ط 01 ، القاهرة ، 1985، ص: 148.

[8] - مسعود صحراوي – التداولية عند العلماء العرب، ص: 23 .

[9] - ريحانة اليندوزي– صلة أسباب النزول بعناصر السياق ودورها في الفهم والتطبيق ، منتدى الإيوان.

[10] - عبد الهادي بن ظافر الشهري – إستراتيجيات الخطاب، ص: 40 ، 41 .

[11] - عبد الفتاح محمود المثنى – نظرية السياق القرآني، دار وائل للنشر ، ط 01 ، الأردن ، 2008، ص:15.

[12] - ردة الله بن ردة الطلحي – دلالة السياق، ص: 50

[13] - جاسم محمد عبد العبود – مصطلحات الدلالة العربية، دار الكتب العلمية ، ط 01 ، لبنان ، 2007، : 133 .

[14] - خلود العموش – الخطاب القرآني، ص: 26

[15] - ردة الله بن ردة الطلحي – دلالة السياق، ص: 183 إلى 186 .

[16] - يونس علي محمد محمد –مقدمة في علمي الدلالة و التخاطب، دار الكتاب الجديد ، ط 01 ، ليبيا ، 2004، ص: 27 ، 28 .

[17] - أحمد مومن – اللسانيات النشأة و التطور، ص: 180 ، 181

[18] - يوسف نور عوض – علم النص و نظرية الترجمة، دار الثقة للنشر و التوزيع ، ط 01 ، مكة المكرمة ، 1410 هـ، ص: 29 .

[19] - روبرت دي بوجراند – النص و الخطاب و الإجراء، ص: 91

[20] - ردة الله بن ردة الطلحي – دلالة السياق، ص: 569 ، 570 .

[21] - المرجع نفسه، ص : 580 (بتصرف) .

[22] - ينظر :جاسم محمد عبد العبود – مصطلحات الدلالة العربية، ص: 151 إلى 158

[23] - عبد الهادي بن ظافر الشهري – إستراتيجيات الخطاب، ص: 45

[24] - ردة الله بن ردة الطلحي – دلالة السياق، ص: 598

[25] - مسعود صحراوي – التداولية عند العلماء العرب، ص: 40 .